

مكانة الغيرية في التصوف الإسلامي: من ضيق الأنا إلى رحابة الآخر.

جلال الدين الرومي نموذجاً.

The status of alterity in Islamic Sufism: the narrowness of the ego to the spaciousness of the other. Jalaluddin Rumi is an example

شريف بن زينب¹*

benzineb.cherif@univ-medea.dz

¹ جامعة يحيى فارس- المدية (الجزائر) ،

مخبر الانتماء: وحدة البحث في علوم الإنسان: للدراسات الفلسفية الاجتماعية والانسانية، جامعة وهران 2

تاريخ القبول: 2025/05/15

تاريخ الإرسال: 2025/02/28

ملخص:

يعتبر التصوف تجربة إنسانية عالمية، وإن اختلفت الممارسات والغايات، إلا أنه يبقى منهج سلوكي عرفاني يربط الذات الإنسانية بالله في طريق عمودي. إلا أن الإنسان لا يعيش بمعزلاً عن الآخر، بل يعيش معه في علاقة أفقية، وكأن الإنسان يرسم ومن خلال علاقاته مع الله ومع الآخر مثلث والإنسان زاويته القائمة. فالإنسان الذي حمل شرف خلقه بيد الله، ماعليه إلا أن يكون اهلاً لهذا التشريف من خلال الارتقاء إلى الإنسان الكامل واتخاذ من الغير سبيلاً للوصول إلى هذا الكمال.

فإذا كان الآخر عن الفلسفة الوجودية الجحيم حسب تعبير جون بول سارتر، فإن الآخر في التجربة الصوفية هو الطريق المؤدي إلى فهم الذات البشرية، وهو الوقت نفسه طريق الوصول إلى الله، لهذا كانت الفلسفة المولوية عند جلال الدين بمثابة خارطة طريق للوصول إلى فهم هذا الكائن البشري الذي يحمل في كينونته سر العالم الخاص والعام على حد سواء.

كلمات مفتاحية: التصوف: الإنسان: الآخر: العرفان: الغيرية.

Abstract

Sufism is considered a universal human experience. Despite variations in its practices and goals, it remains a gnostic behavioral path that connects the human self to Allah along a vertical axis. Yet, humans do not live in isolation from others; they live in a horizontal relationship with them. It is as though, through their relationships with Allah and others, humans draw a triangle one in which the person occupies the right angle. The human being, honored by being created by Allah's own hand, must live up to this dignity by striving toward the "Perfect Human" and using others as a means to reach this completeness.

While existentialist philosophy, as expressed by Jean-Paul Sartre, regards the Other as "hell," in the Sufi experience, the Other is the path to understanding the human self and simultaneously the path to reaching Allah. For this reason, the Mevlevi philosophy of Jalal al-Din (Rumi) serves as a roadmap for comprehending this human being who carries within their being both the mystery of the individual and the universal world.

Keywords: Sufism; Man; Other; Gnosticism; Otherness.

* المؤلف المرسل.

1- مقدمة

تعتبر التجربة الصوفية والنظر الفلسفي من أهم الممارسات تأثيراً في السلوك البشري، وإن كان لزاماً علينا الإعلان عن البون الظاهر بينهما للوهلة الأولى، أو بقول أوجز وعبارة جامعة مانعة، إن نهج التصوف الذكر، والفلسفة تقوم على الفكر، ولكن الدارس الحصيف سيدرك تلك الوشائج القائمة بينهما، حيث سيقف على تصوف في الفلسفة، وفلسفة متضمنة في التصوف، أو بتعبير آخر تصوف فلسفي وفلسفة صوفية. ولقد عرف تاريخ الفكر الإسلامي العديد من المحاولات للجمع بين التصوف والتفلسف، ويعتبر شهاب الدين يحيى السهروردي (ت 587هـ) من أشهر رواد الفكر الإسلامي العاملين على التوحيد بين التصوف والفلسفة أو بين الشريعة والحكمة، أو ما اصطلح عليه الطريق الذوقي الصوفي والمنهج النظري الفلسفي، وهذا داخل منهجية إشراقية.

مما لا ريب فيه أن التصوف ينكب على النفس الإنسانية يهذبها، ويصلح سيرتها، وهذا وفق طريق غير طرق النظر العقلي الذي ينهجه المتكلمون والفلاسفة وحتى الفقهاء، فالمعرفة التي يبنونها التصوف مختلفة كل الاختلاف عن المعرفة الفلسفية أو العلمية. لهذا فالتصوف يعتمد على طريق الكشف والإلهام والحدس الباطني والمجاهدة، منهج يقوم على الرياضات النفسية والمجاهدات، تروم تهيئة القلب لاستقبال العلم اللدني، لهذه فالمعرفة الصوفية معرفة ذوقية أساسها المحبة المتبادلة بين العبد وربّه. (شرف، 1990، صفحة 181)

الفلسفة رياضة النظر العقلي، والرغبة في هتك ستر الحقيقة وفق فكر يولد من رحم الدهشة، فكريتندرج من السؤال البسيط إلى المركب، وإلى التصورات والمفاهيم وفق غريزة المحبة في الكشف عن حقائق الأمور وكنه الوجود، فكانت بذلك الفلسفة محبة الحكمة. فإذا كانت الفلسفة محبة الحكمة، والتصوف ترويض النفس وسلوك سبل المعارج إلى الله، فإن هناك قاسم مشترك بينهما- الفلسفة والحكمة- وهو الغير أو الآخر، فمن غير الممكن ممارسة تفلسف أو تصوف بمعزلٍ عن هذا الغير.

نحن ومن خلال هذه الورقة البحثية نحاول الوقوف على مفهوم الغيرية والآخر في تصوف جلال الدين الرومي، هذا الهرم الكبير الذي شغل الغربيين قبل المسلمين بأشعاره العرفانية، وطريقته المولوية في بناء الإنسان، ومن خلال هذه الورقة البحثية نحاول الاجابة على الاشكالية الأساسية: ما موقع الآخر في فكر جلال الدين الرومي؟ وهل يمكن اعتبار هذه الغير وسيلة دافعة للوصول إلى مفهوم الإنسان الكامل؟ وماهي الألية الناجعة في جعل الآخر مصدر نعيم لا جحيم؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية إرتأينا المنهجية التحليلية من خلال عرض فكر جلال الدين الرومي وموقفه من الغير، مع عرض أهم الأسس التي تقوم عليها فلسفته في بناء منظومة عرفانية تجعل من الغير معامل مهم وأساسي في بلوغ الانسان الكامل.

2- التصوف نزعة إنسانية

ليس الغرض من ورقتنا البحثية هذه، البحث في الاشتقاق اللغوي للتصوف، أو في المرجعيات المؤسسة له، ولكن ما نرومه هو الوقوف على مواطن البعد الإنساني في التجربة الصوفية، وموقع الآخر بالنسبة للمتصوف، أو بتعبير آخر مفهوم الغيرية في الفكر الصوفي الإسلامي. لقد قيل الكثير بخصوص الاشتقاق اللغوي للتصوف، وألفت فيه التواليف العديدة، فمنهم من اشتق هذا اللفظ من أهل الصفة وآخر من الصوف، وذلك أرجع الاشتقاق إلى الصفاء. والمتفق عليه أن التصوف هو سلوك تربوي الغرض منه تهذيب النفس وتصفية القلب، ولا يكون هذا إلا بالتخلي بالشرعية والافتداء بالرسول الهادي إلى سواء السبيل. ولا تتأتى هذه التصفية والتربية إلا بحسن الخلق، لأن « التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف... ومن شرط المنعوت بالتصوف أن يكون حكيماً ذا حكمة، وإن لم يكن فلا حظ له في هذا القلب، فإنه حكمة كله، فإنه أخلاق، وهي تحتاج إلى معرفة تامة وعقل راجح وحضور وتمكن قوي من نفسه... فالصوفي من قام في نفسه وفي خلقه وخلقه قيام الحق في كتابه وفي كتبه... فالتخلق بأخلاق الله هو التصوف» (الحاتمي، د ت، الصفحات 266-267).

يقول الإمام أحمد زروق الفاسي* (846هـ-899هـ) في القاعدة التاسعة والخمسين من كتابه القواعد في التصوف: « تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد وجوه الاستحسان، وحصول الحسن لكل مستحسن، ومن هنا نحوه. وللفقيه تصوف رامة ابن الحاج في مدخله. وللمحدث تصوف حام حوله ابن عربي في سراجيه. وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه. وللمتريخ تصوف نبيه عليه القشيري في رسالته. وللناسك تصوف حواه القوت والإحياء. وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي فكتبه، للمنطقي تصوف نحا إليه ابن سبعين في تأليفه. وللطبايعي تصوف جاء به البوني في أسرارهِ. وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه فيعتبر كل بأصله من محله» (زروق، 2005، الصفحات 41-42). من خلال هذه القاعدة التي يقدمها أحمد زروق في كتابه، يتضح تموقع التصوف كسلوك وممارسة عند مختلف الأفراد مع تعدد الفهم لهذه الممارسة.

تعتبر التجربة الدينية والتجربة الصوفية أقدم التجارب من النظر الفلسفي، وهذا لحاجة الإنسان إلى ملاذ روي يخفف عليه وطأة الوجود، ويبدد هواجس ويسكن قلقه. هذا ما جعل ميلاد الفلسفة لاحقاً للتصوف، بل ويعتبر هذا الأخير الرحم الذي تولدت منه الفلسفة، حيث أنها وكما يرى نيتشه، أن الفلسفة خرجت من رحم التصوف. لذا نجد تلك المسحة الصوفية في الكثير من الفلسفات، وإن حاول صاحبها تحيد التصوف إلا أنه يجد نفسه يركن إليه في نهاية رحلته الفلسفية.

3- العشق معراج الإنسانية

ترى ماري شيمل أن القوة المحركة لفكر الرومي هو العشق الإلهي، هذا العشق الذي يعتبر ذات الله التي تكشف عن ذاتها من خلال ثنائية الجمال والجلال لمخلوقاته (زروق، 2005، صفحة 27). فالمخلوقات التي خلقت من مادة تحمل صفة الفناء، حملت كذلك صفة الجمال الإلهي، أما الإنسان فكرم بالخلق والنفخ فيه من روحه، إلا أن ما يجمع المخلوقات هو ماديتها الفانية، الحاملة لنفس من روح الله تعالى، وهي في الوقت نفسه تحمل في طياتها الجانب الشيطاني، الجانب السلبي الأناني.

يرى جلال الدين الرومي أن السُّلَمَ الروحي الذي أسسه لا يقوم بإلغاء هذا الجانب والتخلي عنه مطلقاً، بل على العكس من ذلك، فإن التجربة الصوفية عند جلال الدين الرومي في نظر ماري شيمل توظف العشق ككيمياء سحرية، فتجعل من شيطان النفس الإنسانية جبريل (زروق، 2005، صفحة 27). ينطلق الرومي في تجربته الصوفية التي أثرت في ماري شيمل من القرآن الكريم وما تضمنه من حقيقة إلهية مطلقة، ليعبر عن ذلك في لغة شعرية صوفية حملت معاني الحب والعشق والتسامي.

يرى الرومي أن أهم المخلوقات تعبيراً عن هذه الحب والعشق هي الشمس، التي تحتل مكانة كبيرة عند شعراء المتصوفة، إشارة لإشراقة وجه النبي صلى الله عليه وسلم، مرجعيتهم في ذلك سورة الضحى، وجلال الدين الرومي يوظف الشمس إشارة إلى حبيبه وأستاذه ومعلمه شمس الدين التبريزي* الذي أخذ بيده لعالم التصوف ورحاب العشق الإلهي. (زروق، 2005، صفحة 28)

لا يقتصر جلال الدين على صورة الشمس فقط، بل يوظف الكثير من المخلوقات في صور شعرية رائعة تنم عن حس صوفي وشوق وعشق إلهي. فهذه المخلوقات ما هي في حقيقة الأمر إلا تجلي لعظمة الخالق. ويبقى عالم الإنسان وأفاق الإنسانية أعظم عالم مارس عليه الرومي فلسفته الصوفية، فالإنسان أساس الخلق، ومن أجله وجد الوجود كله. يبين لنا القرآن الكريم عظمة هذا الوجود، وفي القرآن آيات الخلق ومراحله العجيبة، حيث نجد هذا في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ». وتعتبر صورة المجازية المرتبطة بالموسيقى والرقص من أكثر الصور التي يعتمد عليها جلال الدين الرومي في طريقته الصوفية التربوية انطلاقاً من رمزية الناي وأشعار كتاب المثنوي، ويربط جلال الدين الرومي هذه الصورة

بقصة خلق آدم عليه السلام، في قوله تعالى: «ونفخت فيه من روحي» ، وما الإنسان في حقيقة الأمر إلا ناي يتكلم لما تلامسه نفخة المعشوق الإلهي (ماري، 2016، صفحة 32).

إن للعشق مهمة سامية، تتمثل في جمع شتات النفس الإنسانية المشتتة، هذه النفس المرهقة بأرذال الحياة الدنيوية الزائلة، من بغض وكره وأنانية، وحب النفس، فهذا الحب حب زائف مرهق للنفس البشرية، بل أكثر من ذلك يقوقعها على نفسها ويحرمها من الانفتاح على الغير، هذا الغير الذي يعتبر امتداد لوجودي، فمن خلاله أتوصل إلى الله من خلال العشق الأسوى، إنه العشق الإلهي. لهذا يتعجب جلال الدين من هذا التشتت والتشرد بين البشر، فليس من أجل هذا خلقوا، فهذا لن يبلغوا حقيقة وجودهم وغاية خلقهم، لهذا يقول: «إن نفس الإنسان محل شبه وإشكال. لا يمكن بوجه من الوجوه إزالة الشبهة والإشكال عنها إلا إذا عشقت، بعد ذلك لا يبقى فيها شبهة وإشكال حيث حبك الشيء يعي ويصم» (الرومي، فيه مافيه، 2002، صفحة 13). فمن خلال العشق تتحرر النفس من حب الذات والتعصب وحتى العناد والكبر. فالعشق يعتبر المحرك الأول للذات الإنسانية لتمارس اعتاقها من برائين النفس الأمارة بالسوء والانتقال إلى معارج الحضرة الإلهية، فبالعشق تستطيع النفس حرق هذه الأدران النجسة لترتقي إلى الحضرة الإلهية، مثلها مثل الخشب لا يصبح جماً إلى تخلص من الدخان.

ينظر الرومي للحب القوة المحركة للإنسان، فمن خلالها يرتقي في معارج الوصول إلى خالقه، لهذا يقول جلال الدين الرومي: «إن السعي وراء الحب يغيرنا، فما من أحد يسعى وراء الحب إلا ونضح أثناء رحلته، فما أن تبدأ رحلة البحث عن الحب حتى تبدأ تتغير من الداخل والخارج» (الأقصري، 2018، صفحة 48).

4- من الإنسان الأخص إلى الإنسان الأعم

في الممارسة الصوفية السلوكية، ينظر إلى الإنسان على أنه حجر الزاوية في هذه التجربة العرفانية، حيث يرتحل داخل عالم الأحوال والمقامات بغية الوصول إلى غاية أسى تعرف بالإنسان الكامل، أو الإنسان الأعم، ويعتبر هذه المفهوم القاسم المشترك بين جميع المتصوفة على اختلاف مدارسهم الصوفية. فهو في تساميه وضعفه، وعلوه وسقوطه، وطهره ودنسه، انصرافه إلى الملاء الأعلى الميدان الرحب الواسع الذي تدور حوله التجربة الصوفية (الرومي، المثنوي، د ت، صفحة 3). فالإنسان هو حجر الزاوية في الممارسة الصوفية، حيث جاء وسط بين الملائكة والحيوان، فهو مجموع عقل وغزيرة. لهذا فالممارسة الصوفية كتجربة ذاتية تربوية روحية أخلاقية، من خلال العشق والمحبة المترفعة عن كل غاية آنية.

يعتبر الإنسان التجلي الأسى للقدرة الإلهية الخلاقة، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم هو أنموذج الإنسان الكامل وهذا بتشريف وإعلان إلهي سماوي، في قوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وقوله: «وإنك لعلى خلق عظيم»، وشخصية محمد صلى الله عليه وسلم الأنموذج

الذي يجب أن يحتذي به، فهو في قلب كل مسلم مؤمن. كما يعتبر الرسول الأكرم النبراس الذي يقتدي به المتصوفة في سلوك معارج الوصول إلى الحضرة الإلهية، معراج قائم على جدلية الهدم والبناء، ومبدأ الموت، هدم الذات البشرية التي تعلقت بأحوال الفناء، وشهوات الدنيا، من أجل بناء ذات قائمة على العشق والحب، وتقدم الصوفية حب الله عن حب الإنسان. (ماري، 2016، صفحة 33)

فالإنسان بالرغم من ضعفه، إلا أن في ذاته يكمن العالم ككل، وفي هذا يقول الرومي: «إذن فأنت في الصورة العالم الأصغر، وأنت في المعنى العالم الأكبر، وفي الظاهر يكون ذلك الغصن أصلاً للثمرة، لكن الفرع في الحقيقة من أجل الثمرة، فإن لم يكن الميل إلى الثمر والأمل فيه، متى كان البستاني يغرس جذور الشجر؟ ومن ثم فإن ذلك الشجر على سبيل المعنى ولد من الثمر، وإن كان الثمر قد ولد منه على سبيل الصورة.» (الرومي، المثنوي، د ت، صفحة 83)

لا يزال الإنسان أعظم المخلوقات، بل وأشرفها، فما خلق الله تعالى له بيديه إلا لقيمته وتفرد، فإنه شرف فما فوقه شرف، لهذا نجد الفكر الصوفي يوليه أهمية كبرى، ولهذا «قد خلق الله الإنسان ليجعله أعظم مجلي لظهوره تعالى من حيث ذاته وصفاته، وليودع فيه الأسرار العرفانية، والأنوار الإلهية، وليس كذلك سائر الموجودات، فليس لها من الأنوار ولا تلك الأسرار نصيب، وإنما أوجدها الله ليظهر بصفتي القوة والاعتدال فحسب، وظهور الله في الإنسان لا يعني حلولاً أو امتزاجاً أو اتحاداً بالمفهوم الحسي، وإنما يعني أن الله يظهر بصفاته فحسب في الإنسان مع تمايز الله عن الإنسان تميزاً تاماً» (التفتازاني، 1958، الصفحات 247-248).

ينظر جلال الدين الرومي للإنسان كعالم يتجلى من خلاله عظمة الله تعالى، بل أكثر من ذلك فأسرار الكون جعلت في هذا الإنسان، فما عليه إلا فهم نفسه، استجلاء أسرارها، لذا يرى الرومي أن «الإنسان أعظم مخلوقات الله، وبقدرة ارتقاء أفراد النوع البشري في معارج الروح تكون مكانتهم، وتكون منزلتهم من الله، فالأنبياء والصوفية هم صفوة البشر، لذلك لأنهم أقرب الناس إلى جوهر البشرية الأصيل ومعدنها الصافي النقي» (كفاي، 1971، صفحة 56). مخلوق عظيم شرفه الله تعالى بلخقه بيديه ونفخ فيه من روح، إلا أنه يبقى معانداً مكابراً عن البحث عن معارج الوصول إلى هذا الخالق العظيم، مكابرة جعلت الإنسان غارقاً في وحل الرذائل ومعادات أخيه الإنسان، لهذا يتوجه جلال الدين الرومي إلى ذلك الجانب الغض في الإنسان، الجانب الذي لا يزال رطباً لزجاً، محاولاً إخراج الإنسان من ضيق الأنا إلى رحابة الآخر، أو لنقل رحابة الإنسانية، حيث الإنسان أخ الإنسان، حيث يقول الرومي: «آه لو شاهدت حسنك! لأدركت أنك أبهى من الشمس، فلم تبذل وتتحلل في سجن الغرباء هذا؟ لماذا لا تكون غضباً نضيراً من فيض الطاف ربيع القلب؟ لماذا لا تبتسم كالزهرة؟ لماذا لا تكون كالعنبر؟ لماذا لا تظل حبيساً دن هذه الدنيا ولا تجيش

كالخمر حتى يسمو بك جيشانك فوق هذا الفلك، تأمل حسنك أيها الجاهل، إنه من سنا الروح الأوتاد، فالمؤمن مرآة المؤمن في وقت الوحدة» (الرومي، ديوان شمس الدين التبريزي، 2009، صفحة 255)

يصور جلال الدين الرومي الإنسان أنه عرضة للخطر الدائم، خطر التعلق بالدنيا وخطر الشيطان والنفس الشهوانية، لهذا لا ينفك يذكرنا بمنزلة الإنسان الأصيل، والغاية التي خلق من أجلها هذا الإنسان، فيقول:

فقد كنا في الفلك، رفقاء للملك.

فلنذهب إلى هناك مرة أخرى كلنا، فتلك مدينتنا. (ماري، 2016، صفحة 413)

فإلى جانب الصحبة الإلهية التي عاشها الإنسان عند خلقه الأول من خلال تواجده في الملكوت العلوي، بإضافة إلى تكريمه بالنفخ فيه من روح الله، هناك رحمة أخرى لا تقل عن سلفاتها، وهي تعليمه الأسماء، رحمة بلغ بها مكانا عليا، وبهذا أصبح في حوزة هذا الإنسان آلاف العلوم في كل عرق (ماري، 2016، صفحة 414). ويعتبر أشعار جلال الدين الرومي في حقيقة الأمر حديث عن عظمة الله كما تتجلى في المظاهر المختلفة وعلى رأس هذه المظاهر الإنسان ذلك الموجود المتفرد في وجود وغايته، والغامض في ذاته، فالله هو الحي القيوم وليس العلة الأولى (ماري، 2016، صفحة 379). لهذا يقول جلال الدين الرومي مستنبطاً من القرآن الكريم:

لو أن الأبحر صارت كلها مداداً.

لما كان ثمة تموقع للانتهاء (كلمات الله)

ولو أن البساتين والغابات صارت كلها أقلاماً

لما كان ثمة نقص من هذه الكلمات أبداً

كل ذلك المداد وكل تلك الأقلام ستفنى

أما هذا الكلام الذي لا عدد له فباق.

فالخطاب الإلهي في رسالة الإسلام موجه بالخصوص للإنسان في أي زمان وأي مكان، وهو بهذا يطابق الحس الأخلاقي لدى الكائن العاقل بصورة لا مثل لها لدى الأديان الأخرى (الرحمن، 2008، الصفحات 242-252). أنا ماري شيمل التي كرست حياتها لدراسة الإسلام، تلح قبل موتها على طلبتها ورفاقها ضرورة إقامة منتدى حوار ثقافي ديني تكون الغاية المنشودة منه مد جسور التفاهم والتفاعل والصداقة بين العالمين الأوربي والعالم الإسلامي، والوصول إلى تعايش بين الأمم وبث قيم التسامح وقبول الآخر.

يركز جلال الدين الرومي على مفهوم العشق والإنسان في تصوفه، فلم يخلق الله تعالى البشر ليكونوا متناحرين، فهم من نفس واحدة خلقوا، وإلى غاية واحدة يسيروا، فما عليهم إلا أن

يحبوا بعضهم البعض، لهذا نجد جلال الدين الرومي يركز على مفهوم الهوية الإنسانية المشتركة لبني البشر وهذا انطلاقاً من الحديث النبوي: «النَّاسُ بنو آدَمَ، وآدَمُ خُلِقَ من ترابٍ»، فهذا أصل الخلق الواحد فلماذا الاختلاف والتقاتل والتناز و التنافر.

يؤكد جلال الدين الرومي على فكرة تماسك المجتمع وارتباطه ببعضهم البعض وهذا من خلال المحبة أولاً، والنظر إلى الآخر كجزء مني أكمله ويكملني، بل يشد عضدي وأشد أعضده، وهذا مثل ما امتزج الماء بالطين، لصبح بعد ذلك أكثر صلابة، وفي هذا يقول الرومي:

«فكن صديقاً حتى ترى الأصدقاء بلا عدد، ومن لا أصدقاء له يبقى بلا مدد

إن الشيطان بمثابة الذئب وأنت يوسف، فلا تترك جوار يعقوب أيها الصفي

والذئب في أغلب الأحيان أخذ لتلك الشاة التي تنبت عن القطيع وتسير وحدها

وذلك الذي ترك السنة مع الجماعة، ألم يسفك دمه في هذا المكان الملى بالوجوش؟

فالسنة هي الطريق، والجماعة هي الرفيق، وتسقط في المذيق دون طريق ودون رفيق» (الرومي، المثنوي، د ت، صفحة 499)

عندما يركز الرومي الإنسان في طريقته وممارسته الصوفية، فهو ينطلق من المكانة التي من أجل خلق الإنسان أولاً، إنه خليفة الله في الأرض، لهذا يركز الرومي قيمة الإحساس بالآخر الذي يعتبر مكملاً لوجودي، وأنا مكملاً له، ولا يكون هذا التكامل إلا بوجود ذلك الحب، الحب الذي يجعلنا ننظر للآخر كجزء مني وإن كان مختلفاً عني.

وكان الرومي بقوله هذا يحيلنا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»، حديث يرسم تلك الخريطة الاجتماعية، أو لنقل تلك العلاقة الأفقية بين الإنسان ومجتمعه، من حيث المخالطة ولزم الجماعة، فالإنسان بغيره لا بنفسه فقط.

5- قيم التسامح والتعايش عند جلال الدين الرومي

من المعروف عن الممارسة الصوفية أنها تقوم على الحب وقبول الآخر وإن كان مختلفاً، فالاختلاف دخیل على النفس البشرية، فأصلها واحد وتفرعت، ولكن هذا التفرع لا يفسد أصل النفس البشرية، ولكن هذه القيم التي تؤمن بها الصوفية، من غير الممكن أن تبقى حيز التنظير بل لابد أن تخرج إلى الممارسة، إلى الفاعلية، فنحن ننظر إلى الفعل أكثر من القول، وكما هو معروف أن الإنسان كائن يميل إلى الممارسة الدينية وإن اختلفت المفاهيم والممارسة، لهذا كثيراً ما يكون سوء الفهم للتعاليم الدينية منتجاً للتعصب الديني، فالإنسان لابد أن يفهم حقيقة الغاية من خلقه، فالإنسان يختلف عن الحيوان، لهذا يقول الشيخ الأكبر ابن عربي: «ولسنا نريد الإنسان بما هو إنسان/ حيوان فقط، بل بما هو إنسان وخليفة. وبالإنياسانية والخلافة صحت له الصورة على الكمال. وما كل إنسان خليفة، فالإنسان الحيوان ليس بخليفة عندنا. وليس المخصوص بها

أيضاً الذكورية فقط. فكلامنا إذن في صورة الإنسان الكامل من الرجال والنساء. فإن الإنسانية تجمع الذكر والأنثى. والذكورية والأنثوية إنما هما عرضان ليستا من حقائق الإنسانية لمشاركة الحيوان كلها في ذلك، وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكمال للنساء كما شهد به للرجال» (عربي، 2001، صفحة 46) ، فالأصل واحد فلم الاختلاف؟ الاختلاف عند ابن عربي هو الركون إلى الحيوانية، فالإنسان الحيوان غير جدير بالخلافة.

لا يختلف جلال الدين الرومي عن غيره من أساطين التصوف الذي دعوا إلى مفهوم التسامح وقبول الآخر، والنظر إلى هذا الغير على أنه جزء مني، جزء يكملني، وأكمّله، لهذا لا يفرق الرومي بين دين وآخر، لهذا يقول: «أين المسلمون ... ما التديير...وأنا نفسي على أعرف نفسي!!... فلا أنا مسيحي، ولا أنا يهودي، ولا أنا مجوسي، ولا أنا مسلم!!...

...ولا أنا من نسل آدم، ولا أنا من نسل حواء، ولا أنا من أهل الفردوس، ولا أنا من أهل جنة الرضوان!!...

وإنما مكاني حيث لا مكان، وبرهاني حيث لا برهان...

فهو لا جسد...ولا هو الروح...لأنني أنا في الحقيقة من روح الروح (الحبيب)» (غالب، 1982، الصفحات 25-26) ، جلال الدين ومن خلال قوله هذا، يؤكد ذلك المصدر الواحد، انه منبع الإنسانية، لهذا ينكر كل اختلاف ويؤكد على وحدة البشرية وقيمها الإنسانية المتعالية والوحدة لها.

ينظر جلال الدين الرومي إلى الآخر المختلف، على أنه أنا أتجلّى فيه. وهو يتجلّى في، فمن غير الإنساني أن تنظر إلى غيرك بعين واحدة، بل يجب أن تنفذ إلى ذاته فهي الأصل الذي تشترك فيه معه، أما المظهر فإنه خداع للبصر، لذا يقول: «فإذا رأيت في أخيك عيباً، فإن ذلك العيب الذي تراه هو فيك أنت، العالم مرآة، التي ترى فيها صورتك» (الرومي، فيه مافيه، 2002، صفحة 35)، إن الغير في حقيقة الأمر ما هو إلا إنعكاس لصورنا، كيفما كانت، فمن غير المعقول أن ننشد الكمال دون هذا الآخر. فمن خلال الآخر أنطلق للوصول إلى ذاتي، ومن ذاتي انطلق إليه ، فمشروع السلام العالمي، ينطلق من هذا المبدأ حب الآخر وليس النظر إليه كجسيم، حسب تعبير سارتر.

يرى جلال الدين الرومي أن الأديان مصدرها واحد وإن تعددت، فالتعدد والاختلاف طارئ بحكم الظرف التاريخي فقط، أم فحقيقتها فغنها تنبع من مشكاة واحدة، لذا فالصوفية عنده « ليست قائمة على الجنس أو العرق أو على الاختلاف الديني والعقائدي، لذلك نجد الحاكم والمحكوم، والغني والفقير، واليهودي والمسيحي والمسلم، يجتمعون في مكان واحد دون أدنى تعصب، لذلك يجب القول أن أهم عوامل إحلال السلام التحرر من قيود التعصب الديني والعقائدي،

حيث يرى مولانا أن هذه الاختلافات والألوان الدينية، هي وليدة المجتمع البشري ومحدثة في العالم الدنيوي (جراتات، 2018، صفحة 170)»

عندما نتحدث عن مفهوم الآخر في التجربة الصوفية، هو ذلك المتمم للكينونتي، بل أكثر من ذلك هو ذلك الجزء الناقص المكمل لوجودي، وبهذا الاتحاد ترتقي الروح إلى موطنها الأول، والتقاءها واتحادها بالحييب (الله)، لهذا نجد الصوفية يتخذون من مبدأ وحدة الوجود المحرك الأساسي للوجود، لهذا فإن « الإنسان في هذه التجارب الروحية، هو ذلك الشخص الذي ينتظر باستمرار ذلك النور الآتي من الآخر لاستكمال وجوده (كماله). إنه إنسان باحث عن الاستنارة، ويسعى إلى نشرها من أجل محاربة العنف السائد بين الأفراد والجماعات... لهذا فاسم اللطيف مكانة وجودية، لأن له دوراً أساسياً متمثلاً في القوة على التحول والتبدل من حال إلى حال من مقام إلى آخر، خارج أيّ تمركز أو تأكيد هووي (هوية)» (كازي، 2018، صفحة 154).

6- خاتمة:

إذا كانت الفلسفة حملت على عاتقها التأسيس لتلك الرؤى والأفكار الداعية إلى اعلاء من قداسة الإنسان، واعتبره مركز الوجود، فإن التصوف ومن خلال تجاربه الروحية، لم يقصر في هذا الأمر، بل كان ولا يزال من أكثر التجارب الإنسانية فهما لكينونة الإنسان، حيث ترى أن مشترك الإنسانية هو البعد الروحي الصافي، فمنبعه واحد ومنتهاه واحد، من الله وإلى الله، لهذا يؤكد جلال الدين الرومي على أن الآخر المختلف ليس بعدو يجب الحذر منه، بل هو الجزء الناقص من كينونتي، فنحن في علاقة تكمالية، أنا/ هو، ولن تكون هذه التكمالية إلا من خلال المحبة والعودة إلى أصل الإنسان، عندنا كانت الأنفس واحدة، فخلقها واحد، وما التعدد والاختلاف إلا نسيان لهذا الأصل الأول.

وعليه فإن جلال الدين الرومي يبحث عن تجسيد القيم الإسلامية المحمدية من خلال الممارسة الصوفية، هذه الممارسة الروحية الأنسب لمجابهة الشر المتنامي في العالم، فالشر دخيل على العالم، ويتنامى الشر من خلال اعلاء الأنا الضيقة على حساب الآخر الرحب، فالعالم يسع الجميع، فقط الكف عن النظر إلى عيوب الآخر من خلال عيوبنا.

كما ركز الرومي على الحب كقيمة مركزية في الحياة، فهو في نظره الرابطة القوية التي تربط الإنسان بالخالق وبالخلق. فالحب هو جوهر الوجود. كما جعل من التسامح والانفتاح على الأديان والثقافات، معتبراً أن الاختلافات الخارجية لا تهم، فما يجمع الشعوب هي الوحدة الروحية. كما شجع على التواصل الإنساني العميق، معتبراً أن الحوار والمشاركة مع الآخرين هي طريق لفهم الذات والوصول إلى الحقيقة. فالإنسان هو مرآة للآخر.

لقد جعل الرومي السلام الداخلي أساساً للسلام الخارجي. حيث أن الإنسان الذي يعيش في سلام مع نفسه يستطيع أن يعيش في سلام مع العالم. كما ركز على التحرر من الأنا والرغبات المادية، والوصول إلى حالة من الاتحاد مع الحقيقة الإلهية. ، كما جعل من الرحمة شعاراً لتجسيد الحب الإلهي.

وعليه يمكننا القول أن هذه القيم الإنسانية، جعلت من جلال الدين الرومي شخصية عالمية، لا تزال تعاليمه مصدر إلهام للملايين حول العالم، بغض النظر عن دياناتهم أو خلفياتهم الثقافية.

قائمة المراجع

1. ابن عربي الحاتمي. 1989. *الفتوحات المكية*. بيروت: دار الفكر.
2. أبو الوفا التفتازاني. (1958). *ابن عطاء الله الاسكندري وتصوفه*. القاهرة: القاهرة.
3. الرومي، ج. ا. (2009). *ديوان شمس الدين التبريزي*. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
4. الفاسي، أحمد زروق. (2005). *قواعد التصوف*. بيروت: دار الكتب العلمية للملايين.
5. جلال الدين الرومي. (2002). *فيه مافيه*. دمشق: دار الفكر.
6. جلال الدين الرومي. (د ت). *المثنوي*. مصر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
7. خير الدين عبد الرحمن. (2008). *أنه ماري شمیل: ثمانون كتاباً تنصف الإسلام والمسلمين*. دمشق: مطابع وزارة الثقافة.
8. شيمل، أنا ماري. (2016). *الشمس المنتصرة: دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي*. دمشق، سوريا: دار التكوين للتأليف و الترجمة والنشر.
9. عارف زغلول، وعبد الكريم على جرادات. (2018). *منهج الدعوة إلى السلم مع الآخر، عند الرومي والنورسي دراسة مقارنة*. مجلة النور للدراسات الخطابية والفكرية، 170.
10. كازي، ص. أ. (2018). *الأنسنة الجديدة واللاعنف، التصوف والعنف*. المغرب: مؤسسة بلا حدود للنشر والتوزيع .
11. محمد جلال شرف. (1990). *التصوف الإسلامي: مدارس ونظرياته*. بيروت: دار العلوم العربية.
12. محمد عبد السلام كفاقي. (1971). *جلال الدين الرومي: حياته وشعره*. بيروت ، 1971 ، ص56: جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.
13. محي الدين ابن عربي. (2001). *إنشاء الدوائر*. دار حوران للطباعة والنشر.
14. مصطفى غالب. (1982). *جلال الدين الرومي*. بيروت، لبنان: بيروت، لبنان.
15. يوسف أبو الحجاج الأقصري. (2018). *جلال الدين الرومي*. القاهرة، مصر: الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع.